

# أمة المساجد وخطبائها

في ميدان الخدمة الاجتماعية

لحضرة صاحب المعالي عبد السلام الشاذلي باشا وزير الأوقاف

“أنجح الدعوات بأفعالها في النفوس ما كُن أسامه الدين . وأكثر  
القرابين لا يقرأ الصحف ولا تصل إليه الدعوات المكتوبة ، فلا وسيلة  
إلى إصلاح القروى الا الوعظ والافتاح . ويرى حضرة صاحب المعالي  
وزير الأوقاف أن خير من يقوم بهذه المهمة إنما هم أئمة المساجد وخطبائها  
وها هوذا يوضح لم حقيقة الرسالة السامية التي يجب أن يقوموا بها في ميدان  
الخدمة الاجتماعية” .

”المتزر“

هزوا القرى من كهفها ورقيمها      أتم لعمر الله أعصاب القرى  
الفاول الأمتى ينطق عنكمو      كالبيغاء مرذدا ومكررا  
يمسى ويصبح في أوامر دينه      وأمور دنياه بكم مستبصرا  
لو قلتم اختر للنياحة جاهلا      أو لخطابة باقلا لخيرنا

في هذه الأبيات من الشعر لخص المرحوم شوق بك مهمة أئمة المساجد وخطبائها وبين  
مدى ما يستطيعون القيام به في ميدان الإصلاح الاجتماعي . فهو يعدهم “أعصاب القرى”  
ويراهم الأئمة الذين يتأثر القروى خطاهم ، ويسير على هداهم ، ولا يستتر في أمر الدين والدنيا  
بسواهم .

وإذ كان وزير الأوقاف هو القائم على أمر المساجد وخطبائها ، وكان هؤلاء الخطباء هم  
حلمة رسالة الدين الى المسلمين فقد وجب أن أهيب بهؤلاء الرسل أن يدركوا حق الإدراك  
ما هي رسالتهم وما السبيل الى أدائها أداء ينفع الناس ويرضى الله .

ليس كل ما يطلب من إمام المسجد وخطيبه أن يلقي خطبة الجمعة قائمة على الأركان الخمسة، أمرة بالمعروف ناهية عن المنكر، في عبارات كاد الناس يستظهرونها لفرط مالاكتها الألسن، ثم ينبرى ليؤم الناس في الصلاة. وأوكان هذا كل ما تريده وزارة الأوقاف من رسولها لكان سهلا أن يقوم به أي رجل من العابدين الصالحين، وكثير ما هم .

إن الوزارة تختار أولئك الرجال من علماء الأزهر الشريف بعد امتحان تقدمه لهم، وتفاضل بينهم ثم تنتقى أوسعهم علما، وأفصحهم لسانا، وأقدرهم على الخطابة والتأثير. واشتراطها في الخطيب هذه الشروط معناه أنها تريد استخدام كل هذه المزايا لتوجيه الناس وإرشادهم ومعناه أن للخطيب عملا واسع النطاق ومهمة أبعده من الوعظ التقليدي ومن التحدث في فرائض الوضوء وأركان الصلاة ونقل ما في الكتب من تفسير لبعض الآيات والأحاديث.

معناه أن الخطيب معلم ومستشار ورفيق على أحوال القوم وعاداتهم وعيوب حياتهم، وحكم فيما ينشأ بينهم من خلاف، وقدوة حسنة لهم في أمر دينهم ودنياهم، فلا فضل له إذا كانت خطبه على المنبر نماذج مطبوعة أو مروية تصلح لمخاطبة كل أنواع الناس وتصدق على كل عصر وكل جيل. بل هو مطالب في خطبته المنبرية وفي أحاديثه العادية أن يضيف إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الماسما بما يراه بعينه من علل القرية والعيوب الخلقية والاجتماعية المتفشية فيها، وله من معارفه الدينية ما يؤيد به هذه الفلسفة الدنيوية ويتمم الدليل .

في كل قرية فريق من الأعيان اللاهين والشبان العابثين الذين يريقون أموالهم ويخسرون أملاكهم وضياعهم في طاعة الشهوات من نحر إلى ميسر إلى عيب بالأعراض .

وفي القرى فقراء لا يزرعهم فقرهم عن مجارة الموسرين في ميادين الفجور، فهم ينفقون فيها قليل أرزاقهم، ويحبسونه عن زوجاتهم وأولادهم فيتركونهم حرة حفاة بأسين .

وفي القرى رجال يكادون يحترقون الزواج والطلاق، فيتكون بين الحين والحين أسرة بتطلق إحدى بناتها وتشريد أولادها، ويؤذون أخرى بخطبة إحدى نساءها على غير كفاة للاتفاق، أو على غير صلاحية لمعاشرتها .

وفي القرى تنافس يقع بين أفراد الأسرة الواحدة على منصب العمدة أو الشيخ كثيرا ما يتفاهم حتى يلهى أصحابه عن صلة القرى ورابطة الأبناء، فتشتد البغضاء وتسيل الدماء .

وفي القرية فقراء لا يجدون الطعام إلا بشق الأنفس ولا يعصمهم من برد الشتاء كساء مدفئ أو ماوى أمين، ويجانبهم أغنياء قادرين على تخفيف بلاهم ولكن البخل قد أقام بينهم وبين الرحمة حجابا كثيفا .

وفي القرية مخرفون ومخرفات يلجأون في تطيب مرضاهم إلى الرقي وأفاعيل السحرة والمشعوذين، وعلى مقربة منهم مستشفيات قروية وعلاج وأدوية بغير ثمن، لكن جهلهم يجعلهم عن ذلك كله في معزل، ويفريهم بالاسترسال فيما هم فيه، فلا تزال الأمراض تفتك بأجسامهم ويتوارثها الأبناء عن الآباء.

وفي القرية غفلة عن النظافة والنظام، فكثير من الفلاحين يضجع أولاده إلى جوار بهائمهم، وأكثرهم لا يبالي أن يكون حافي القدمين عاري الرأس، وهو ينشئ بيده وبناته على هذه القذارة وهذه الفوضى، مع أن عبء النظافة والنظام يسير لو سمع من يلتفت أن النظافة من الإيمان ومن يحذر عواقب الفوضى والاهمال.

وفي بعض مجالس القرية الغيبة والنميمة والذم والحض على شهادة الزور. وهكذا تقع العين كل يوم على أمثال هذه النقائص التي لا تكفي القوازين الوضعية في زجر الناس عنها وإرشادهم إلى طرق الخلاص منها.

فإن لهذه المهمة الجليلة إلا هذا الواعظ أو ذلك الخطيب الذي ينطق بكتاب الله، ومحدث رسوله، وبسنن خلفائه وأتباعه، ويضرب للناس في كل هذه الشئون مختلف الأمثال.

إن سلطان القانون إنما يقع على الأجسام، أما سلطان الدين ودعاته فينفذ إلى القلوب محبوبا قبل أن يكون مردوبا.

وكم من قلب طبع على الشر وتغلغل فيه شيطان الفساد، حتى إذا عمد إليه المصلح بعلاج النصيح والموعظة الحسنة، وأرسل طايه أشعة من هدى الدين، رق وخشع وانبعثت فيه الرحمة وحب الاحسان، وأفاض على الانسانية خيرا جزيلا.

أنت أيها الخطيب، الأمين على هذه الرسالات كلها، فلست للوظيفة وحدها، ولا للإمامة والخطابة الرسمية وحسب، ولا لوزارة الأوقاف دون سواها، بل أنت لوزارة الداخلية حين تقول للمختلئين "إنما المؤمنون أخوة فأصلحوا بين أخويكم" فتترع البغضاء من صدورهم وتردهم عن الإجماع والعبث بالأمن. وأنت لوزارة الدفاع حين تقول لمن لا يعرفون حق الوطن على بنيه "وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم." فتؤمن الخائف وتدفع المتردد، وتفهم الناس لذة الجهاد وثواب الاستشهاد. وأنت لوزارة الصحة حين تروي للناس قول الله سبحانه "إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين" وحين ترضى في شرح هذه النصيحة الإلهية مطبقا إياها على مختلف نواحي الحياة

من ، ما كل وملبس وسكنى وطب وعلاج ، فلا يهمل الناس تنظيف أنفسهم ولا تنظم حياتهم ولا مداواة مرضاهم . وأنت لوزارة المعارف حين تجعل مجالسك دروسا تعلمهم فيها ما يجهلون من شئون المادة والروح ، فتعوضهم عن بعض ما فوته عليهم حرمانهم من التعليم المدرسي المنظم ، وتفتح أذهانهم للتفكير والاستيعاب ، وتطلعهم على شيء مما يجرى من حوادث العالم وعلاقات الأمم وما يتصل منها بمصر . فأنت في هذا جريدهم الشفوية ، ومذبايعهم الدائم ، إذ أن أكثرهم لا يعنى بالجريدة ولا يملك المذبايع . وهم إذا وجدوها فليسوا بقادرين على تفهم ما يكتب وما يذاع ، إلا أن يتولى الشرح والبيان لسان رجل الدين الذى يجونه ويصفون اليه بأذنانهم وقلوبهم ، ويعتقدون أنه لا ينطق عن الهوى ، وأن كلمته هى وحى الله وبلاغ رسوله . وكلما كان هذا الناصح متحليا بالاستقامة والتقوى ، متحرجا من الغيبة والنميمة ، لبقا فى حديثه ، مخاطبا الناس على قدر عقولهم ، كانت نصيحته أقرب الى القبول ، وكانت آراؤه وفتاواه فى أمور الدين والدنيا سائغة فى النفوس . وأنت لوزارة العدل حين تنصب نفسك أو ينصبونك قاضيا عرفيا يعرضون عليه مشكلات الأسر ، فتحول بوعظك ونصحك دون طلاق ، أو تعين على زواج . وقد يعرضون عليك بعض معاملاتهم ومدايناتهم فيغنيهم قضاؤك عن التحاكم الى المحكمة ، أو عن ارتكاب تزوير يودى بصاحبه الى العقاب وأنت لوزارة الشؤون الاجتماعية تتفهم دعوتها ومشروعاتها الإصلاحية ، فتعمل على نشرها مستعينا بما تضمنه دينك من وصايا الإصلاح . والإسلام دين الاجتماع ودين العمران ، والقرآن سبيل الهداية فى الأولى والآخرة ، ما فوط فى شيء ولا ترك اتباعه ومدركه فى حيرة من أمر . فهو لم يقف عند تلقينهم العبادات ، بل نظم لهم المعاملات ، وأقام حياة الأسرة على أقوى الدعائم ، ورسم لهم حتى آداب المعاشرة والمحادثة والتراور والطعام والشراب . ولو أخذنا بتعاليم ديننا لما تأخرنا عن صف أرقى الأمم ، ولما احتجنا الى تقليدها فيما اتخذت من نظم ، وفيما وصلت به الى مستواها الرفيع .

أتم إن جريتم هذا المجربى أياها الخطباء فقد أدركتم رسالتكم وكنتم " أعصاب القرى " كما سماكم شاعر مصر العظيم ، بل كنتم أنجح الدعاة لدينكم ، وأبر الناس لديناكم .

عبد السلام الشاذلى